﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ [الأنعام: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

نفيُ علمِ الغيب عنِ النّبيّ ﷺ يلزمُ منه إثباتُهُ لنفسِه جلَّ في عُلاه

لمّا قال سبحانه في فاصلة الآيةِ السّابقةِ: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عطفَ عليها بما هو أشملُ مِن هذا، ولمّا نفى عن رسول الله ﷺ عِلمَه بما يستعجلونه منَ العذاب أثبتَ عِلمَه سبحانه بكلّ ما في الغيب بطريق الحصر.

ومن عادة بناءِ السّورة القرآنيّةِ أن يستأنفَ في قلبها تفصيلًا لمعنًى منَ المعاني الّتي وردت في صدرها، وقد قال سبحانه في صدر سورةِ الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ٣﴾ [الأنعام: 3]، فجاء قولُه بعد ذلك ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾، وقد تضمّنت تفصيلًا من علم الله سبحانه.

شَرۡحُ المُفۡرَداتِ:

1) ﴿مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾: (فتح) أصلٌ يدلّ على خلاف الإغلاق[1]، والمِفتاحُ: مفتاحُ الباب، وكلِّ مُستغلقٍ[2]، يُقال للّذي يُفتَح بِهِ المِغْلاق مِفتَحٌ ومِفتاحٌ، وجمعُهما مَفاتحُ ومفاتيح[3]، والمفاتحُ: المخزنُ، ﴿مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾: خزائنُه؛ وهي الطّرقُ الموصلةُ إلى علمِهِ تشبيهًا بمفتاح الدّار[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتح)، والرّاغب، المفردات: (فتح).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (فتح).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فتح)، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/37، والعُليميّ، فتح الرّحمن: 2/408.
(4) العُليميّ، فتح الرّحمن: 2/408، والإيجيّ، جامع البيان: 1/540.

2) ﴿وَرَقَةٍ﴾: ورَقُ الشّجرِ. جمعه: أَوراقٌ، الواحدة: ورَقَةٌ، والورقُ: ما تبسّط، وكان له عِرْق في وسطه، تنتشر عنه حاشيتاه، من أوراق الشّجر والكِتاب[1]، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾؛ هي واحدةُ الورق منَ النّبات[2].

3) ﴿تَسْقُطُ﴾: (سقط) أصلٌ يدلّ على الوقوع[3]، سقط: وقع من أعلى إلى أسفلَ[4]، وانحدارٌ في الهواء[5]، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾، "يعلم كم انقلبَت إلى أنْ سقطتْ على الأرض"[6].

4) ﴿رَطْبٍ﴾: (رطب) أصلٌ يدلّ على خلاف اليَبَس[7]، ورطُبَ الشّيءُ نَديَ، وشيءٌ رَطْبٌ إذا كان مبتلًّا بالماء أو ليّنًا[8]، ﴿وَلَا رَطْبٍ﴾: الرّطبُ الماءُ: يريد النّبات، أو الحيّ[9]، فالرّطبُ ما فيه حياةٌ منَ الشّجر والنّبات والحيوانات[10].

5) ﴿يَابِسٍ﴾: (يبس) أصلٌ يدلّ على جفافٍ[11]، وهو نقيضُ الرّطوبة، وطريقٌ يبسٌ لا بَلَلَ فيه[12] إذا جفَّ بعد رطوبته فهو يابس، ومكانٌ يَبَسٌ إذا كان فيه ماءٌ فذهب[13]، ﴿وَلَا يَابِسٍ﴾: ما فارقته الحياةُ منَ الأشجار والنّبات والحيوانات[14]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾، يريد: ما ينبتُ وما لا ينبت[15]، ولا حَيٌّ ولا مواتٌ[16].

6) ﴿كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾: الكتابُ المبينُ: هو اللّوح المحفوظ، مرسومٌ فيه عددُه ووقتُه في

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ورق)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ورق).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/533.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سقط).
(4) الفيوميّ، المصباح المنير: (سقط).
(5) الجرجانّي، درج الدّرر: 1/611.
(6) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/130.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رطب)، والجوهريّ، الصّحاح: (رطب).
(8) الفيوميّ، المصباح المنير: (رطب)، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رطب).
(9) الخازن، لباب التّأويل: 2/119، والماورديّ، النّكت والعيون: 2/122.
(10) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/127.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يبس).
(12) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (يبس).
(13) الفيوميّ، المصباح المنير: (يبس).
(14) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/127.
(15) الواحديّ، البسيط: 8/191.
(16) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/111.

اخضِراره ويُبسِه وسقوطِه، وكلُّ ذلك غيرُ خارج عن علم الله تعالى[1]؛ يعني: أَنّ الكلّ مَكتوبٌ فيه[2]، ﴿مُّبِينٍ﴾: يبيّن عن صحّة ما هو فيه، بوجود ما رُسم فيه على ما رُسم[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وسعَ ربُّنا كلّ شيء عِلْمًا، وإحاطةً

يخبرُ اللّه تعالى عن سعة علمه، فعنده وحده تعالى خزائنُ الغيب، لا يعلمُها غيرُه، ويعلمُ كلَّ ما في البرّ والبحر من موجودات، وما تسقطُ من ورقة في أيّ مكان، ولا توجدُ حبّةٌ في أعماق الأرض، ولا يوجدُ رطبٌ، ولا يوجد يابسٌ، إلّا كان مثبَتًا في اللّوح المحفوظ[4]، فسبحان مَن أحاط بكلّ شيءٍ علمًا.

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ تقديمِ الظّرف:

الغيبُ مخصوصٌ بالله ﷻ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ تقديمٌ للظّرفِ الواقعِ خبرًا ﴿وَعِندَهُۥ﴾ على المبتدأ؛ لإفادة التّخصيصِ والحصر[5]؛ أي: عنده وحده لا عند غيره[6]، فالجملةُ بيانٌ لاختصاص الغيب به تعالى من حيثُ العلمُ[7].

بلاغةُ الاستعارةِ التّمثيليّةِ في المفاتِحِ:

علمُ الله تعالى الغيوبَ أكمل وأشملُ

استُعيرت المفاتحُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾؛ للتّوصّل إلى الغيب، كما يُتوصّلُ بالمفاتح إلى ما في الخزائن[8]؛ فقد جَعلَ للغيب

---

(1) مكّيّ القَيسيّ، الهداية: 3/2044، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/536.

(2) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/111.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 11/403.

(4) مجموعة من المؤلفين، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/134.

(5) زاده، حاشية على البيضاويّ: 4/57، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2522 - 2523.

(6) الآلوسي، روح المعاني: 4/162، والسّيوطيّ، قطف الأزهار: 2/886، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/135، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/270.

(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/143.

(8) ابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/263، والسّخاويّ، تفسير القرآن العظيم: 1/251، والسّيوطيّ، قطف الأزهار: 2/886.

مفاتيحَ على طريق الاستعارة؛ لأنّ المفاتيح هي التّي يُتوصّل بها إلى ما في الخزائن المُستَوثَق منها بالإغلاق، فمَن علمَ كيف يُفتح بها، ويُتوصّلُ إلى ما فيها، فهو عالم[1]، وفي هذه الاستعارة التّمثيليّة مزايا عدّةٌ، منها: الإشارةُ إلى أنّ الله سبحانه قد أحصى كلَّ شيءٍ علمًا كإحصاء مَن بيده مفاتيحُ الخزائن لما فيها، والإشارةُ إلى عِلْمِه سبحانه بخفايا الأمور كعِلْم مَن بيده مفاتيحُ الخزائن بما فيها من أشياءَ لا يعلمُها غيرُه، وهذا المَغزَى في الاستعارة يؤكّد دلالةَ القصر، ويتفاعلُ معها.

نُكتةُ تعدّدِ الكيفيّات الدّالّةِ على اختصاصِ علْمِ الغيبِ بالله تعالى:

تأكيدُ نسبةِ العلْمِ بالغيب للـه تعالى وحده؛ ردْعًا للطّامعين في ادّعاءِ معرفةِ شيءٍ منه

قولُه جلّ شأنُه: ﴿لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ حصرُ العلم بتلك المفاتح بالله تعالى، فلا يطّلعُ عليها غيرُه[2]، فهو تأكيدٌ لمضمون الجملة الأولى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ الدّالّةِ على الاختصاص[3]، وتأكيدُ دلالةِ الاستعارة في ﴿مَفَاتِحُ﴾ على أنّه لا يعلمُ خفايا الغيب إلّا الله كما أنّ مَنْ بيده مفاتحُ الخزائن لا يعلم ما فيها غيرُه، وتعُّددُ تلك الوسائل التّعبيريَّةِ الدّالّةِ على اختصاص علم الغيب بالله يقطعُ أطماعَ بعضِ مَردةِ الإنسِ والجنِّ في معرفة شيءٍ من ذلك العلمِ.

براعةُ كمالِ الاتّصالِ بين الجُملتين:

قوّةُ الرّبطِ المعنويِّ بين الجُملتين أغنى عنِ العطْفِ الظّاهرِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ جملتان متّحدتان في المعنى، وهما قولُه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾، وقولُه: ﴿لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ ففصَل بينهما ولم يعطفْ؛ لأنّ معناهما واحدٌ، فالثّانيةُ مؤكّدةٌ[4]، وهذا مِن كمال الاتّصال الّذي يحقّقُ الرّبطَ المعنويَّ بين الجُملتين، ويُغني عن أداة عطفٍ.

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/118، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/31، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/299، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/165، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/143.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/534 - 535.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/143، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/154، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2522 - 2523.

(4) الشّهاب، عناية القاضي: 4/71.

توجيهُ عطْفِ علْمِ ما في الأرضِ على علْمِ الغيبِ:

علمُ الله سبحانه يجمعُ علمَ الغيب وعلمَ الشّهادة؛ تأكيدًا لعُمومِ معرفتِه

لمّا ذكر معرفته بعلم الغيب في: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أتبعَه بعلم الشّهادة في ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾؛ تكملةً له، وتنبيهًا على أنّ الكلَّ بالنّسبة إلى علمِه المحيطِ سواءٌ في الجَلاءِ[1].

فائدةُ التّخصيصِ بعدَ التّعميمِ:

ذكرَ القرآنُ البَرَّ والبحرَ تفصيلًا بعد الإجمالِ، وتمثيلًا على سائرِ مخلوقاتِه

بعد أن ذكر عمومَ علمه سبحانه تعالى خصّ علمَه بما في البرّ والبحر بقولِه جلّ شأنُه: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾، وهما داخلان تحت ذلك العموم، وإنّما أفردَهما بالذّكر؛ لأنّه لمّا قال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ بيّن علمَه على سبيل الإجمال، فذكرَهما بعده على سبيل التّفصيل؛ ليدلّ بهما على سائر مخلوقاتِه[2]، وخصّ البرَّ والبحرَ بالذّكر؛ لأنّهما أعظمُ مخلوقات الله تعالى المجاورةِ للبشر؛ أي: يعلمُ ما فيهما من شيء[3].

مزيّةُ الطّباقِ في البرِّ والبحرِ:

فضلًا عن الجمالِ المعنويِّ، دلَّ الطّباقُ على شُمولِ علْمِ الله تعالى

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ جمعَ لفظَيِ البرّ والبحر في جملةٍ واحدةٍ، والتّضادُّ بينهما يدُلُّ على شُمول علم الله تعالى بما في مخلوقاته على اتّساعِها؛ ففي البرّ أشياءُ لا تُحصى عدًّا، وفي البحر أشياءُ لا تُحصَى كذلك، ولكنّ الله يعلمُها على خفائها.

فائدةُ التّعبيرِ بالموصولِ:

شَمِل عِلمُ الله المعانيَ والذّواتِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ عبّر بالموصول الحَرفيّ الدّالِّ على العموم؛ لأنّه أراد تعميمَ المعرفة لتشملَ الذّواتِ والمعانيَ كلَّها[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/143، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/135، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/535.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/119.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 4/155، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/299، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/535، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/140.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/272.

علّةُ تقديم البرِّ على البحرِ:

بدأ قولُه جلّ شأنُه: ﴿ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ بذكر البرّ قبل البحر؛ فقدّم ذكرَ البرّ؛ لأنّ الإنسانَ أكثرُ ملابسةً له ولأحواله، ولكثرةِ مشاهدته بما اشتمل عليه منَ المدن، والقُرى، والمفاوزِ، والجبالِ، والحيوانِ، والنّباتِ، والمعادنِ؛ وأخّرَ البحرَ؛ لأنّ إحاطةَ الحسّ بأحواله أقلُّ[1].

البرُّ أكثرُ ملابسةً للنّاسِ، وهم أكثرُ إحاطةً بأحوالِه منَ البحرِ

بلاغةُ القَصْرِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾:

عبّر عنِ العِلم في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ بسقوط الورقة، وهو حالٌ مِن أحوال الورقة؛ مبالغةً في علمِه بلطائفِ الأشياء؛ لأنّ التّعبيرَ عنِ العلم بالأحوال أدلُّ على دقّة العلم منَ التّعبير عنِ العلم بالذّات، فذَكَرَه مبالغةً في إحاطة عِلْمِه بالجُزئيّات[2]؛ لأنّ سقوطَ الورقة حَدَثٌ لا يُؤبَهُ بِهِ لدى النّاس، فالتّعبيرُ بالعلم به دليلٌ على دقّة عِلْمِهِ ﷻ.

العلمُ بالأحوالِ أبلغُ في الدّلالةِ على دقّةِ العلْمِ

وأسلوبُ القصر بالنّفي والاستثناء يخصُّ عِلْمَ هذا الأمر بالله سبحانه، وتتجلّى قيمتُه في إعجاز الخلق جميعًا أن يعلمَ واحدٌ منهم بما يسقطُ من أوراق شجرة حديقته، فما بالُ أشجارِ الدّنيا الّتي أحاط الله سبحانه علمًا بكلّ ما يسقط من أوراقها.

نُكتةُ التّعبيرِ عنِ السّقوطِ بالمضارع:

عبّر بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ الدّالِّ على الحدوث والتّجدّدِ عن سقوط الورقة إشارةً إلى أنّ عِلْمَه تعالى لا يتعلّق بمعنى السّقوط العامّ، بل هو يعلمُ الحدَثَ المتجدّدَ؛ فكلّما تسقط ورقة فإنّه تعالى يعلمُ حدوثَ سقوطها.

يَدِقُّ علْمُ الله بمتجدِّدِ الأحداثِ لا عُمومِها

علّةُ إيثارِ لفظِ السّقوطِ:

وخصّ البيانُ بالذّكر حالَ السّقوط من بين أحوال الورقة، فلم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/535، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/90، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/136.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/165.

يقل: (وما تنمو) مثلًا؛ لأنّه اكتفى بحال السّقوط عن سائر الأحوال، باعتبارِه أُنموذَجًا لغيره منَ الأحوال[1]، وتنبيهًا لأولي الألباب على النّهاية الحتميّة لكلّ حيٍّ، وكما يعلمُ سبحانه بتساقُطِ الأوراق ورقةً ورقةً، فإنّه يعلمُ بتساقُط الأنفسِ في هذه الدّنيا نفسًا نفسًا ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم 94 - 95]

مَصيرُ كلِّ حيٍّ ومآلُه إلى السّقوطِ

فإن قيل: لمَ خصَّ الورق السّاقِط بالذّكر، وهو يعلمُ السّاقِط والثّابت؟ جوابُه: أنّه يتضمّن إشارةً إلى معنى السَّقط، وهو ما لا أهمّيّةَ له ولا فائدةَ، فعلمُه بالثّابت المنظور من بابِ أولى[2]، والمرادُ التّنبيهُ إلى أنّه لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلّا سيحاسِبُ عليها.

دلالةُ (مِن) في ﴿مِن وَرَقَةٍ﴾، وفائدةُ التّنكير:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ عبَّر بحرف الجرّ (مِن) الّتي تفيدُ استغراقَ الجنس[3]؛ لتأكيد النّفي والتّعميم، بحيث إنّه يستغرقُ كلَّ ورقة[4]. وذَكَرَ الورقةَ بصيغة التّنكير؛ إتمامًا للتّعميم[5]، وهنا تتآزرُ دلالاتُ الكيفيّات التّعبيريّة، فتظلّ ﴿مِن﴾ على استغراق جنس الورقة، حتّى لا تبقى ورقةٌ من أشجار الدّنيا كلّها إلّا ويعلمُها الله، ويعضّدُ تنكيرُ ﴿وَرَقَةٍ﴾ هذا المعنى.

تدلُّ (مِن) على استغراق الجنسِ؛ لتأكيدِ النّفي؛ والتّنكيرُ للتّعميمِ

فائدةُ إطلاقِ العلْمِ بالورقةِ دونَ تقييدِه:

جاء الفعلُ (يعلم) في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ مطلقًا[6]، فلم يقُل: (يعلم سقوطها) فآثرَ أن يكون العلمُ مطلقًا؛ لشمول جميعِ أحوالها وتقلّباتِها: فعلمُه بها مُطلقٌ قبْلَ السّقوط، ومعَه، وبعدَه، يعلمُها ساقطةً وثابتةً، ويعلمُ متى تسقطُ؟

تعلّقُ العلْمِ بجميعِ أحوالِ الورقةِ تعظيمٌ لعلْمِه ﷻ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/143، والآلوسي، روح المعاني: 4/163.
(2) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 2/110 - 111.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/535، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/510.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/136، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/272.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/136.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/299.

وأين تسقطُ؟ وكم تدورُ في الهواء؟! ويعلمُ كيف انقلبت ظهرًا لبطن إلى أن وقعت على الأرض؟![1].

وجهُ ذكْرِ الخاصّ بعد العامّ:

شُمولُ علمِ الله تعالى لكلِّ شيءٍ إجمالًا وتفصيلًا

بعدما ذكرَ قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ علمَه على وجه العُموم، أتبعَه بذكر علمِه بالورقة والحبّةِ والرّطبِ واليابسِ على سبيل الخُصوص، فتحصّل إخبارُه تعالى بأنّه عالمٌ بالكلّيّاتِ والجُزئيّات[2].

سِرُّ التّعبيرِ عنِ العلمِ بمعرفةِ الحبّةِ:

إحاطةُ علْمِه سُبحانه بالصّغائرِ من كمالِ نُفوذِ علْمِه

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ بعد أنْ ذكر تعالى عِلْمَه بالأشياء الكثيرة عدلَ إلى إعلام عبادِه بصِغَر المُدرَك وخفائِه؛ تعظيمًا لإحاطة عِلْمِه تعالى[3].

وتقييدُ ﴿حَبَّةٍ﴾ بقوله تعالى: ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾؛ ليبيّنَ أنّه يعلمُ الأشياءَ بصفاتِها وأحوالِها، فالعلمُ بالحبّة قائمٌ، ولكنّه أضاف وصفًا للحبّة يخلعُ عليها مزيدًا منَ الخفاء؛ لأنّه "يريدُ في أشدّ حالات التّغيّب"[4]، فهذه الصّفةُ مفيدةٌ لكمال نفوذِ علمِه تعالى[5].

الغرَضُ منَ الإخبارِ بدقّةِ العلْمِ:

عِلْمُ الله تعالى يَشملُ ظاهرَ الأعمالِ، وخَفيَّها

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ في ذكْرِ الحبّة والورقة وغيرِها تنبيهٌ على غيرها؛ لأنّها أشدُّ تغييبًا من كلّ شيء[6]، إشارةٌ للمكلّفين على أمر الحساب؛ لأنّه إذا كان بحيث لا يهملُ أمرَ الأشياء الّتي لا يُؤبهُ بها، وليس لها ثوابٌ ولا

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/536، والخازن، لباب التّأويل: 2/119.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/535.

(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/90.

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/299، وابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/263.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/143، والآلوسيّ، روح المعاني: 4/163.

(6) ابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/263.

عقاب، فلأنْ لا يُهملَ أمرَ المكلّفين أَولَى[1]، وليُعلَمَ أنّ الأعمال أولَى بالإحصاء للجزاء[2].

سرُّ جمعِ ﴿ظُلُمَٰتِ﴾:

إيثارُ الجمعِ يؤذنُ بالمبالغةِ في دقّة علمِه سُبحانه وسَعتِه

آثرَ التّعبيرَ بالجمع في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ﴾، ولم يقُل: (في ظلمة الأرض)؛ مبالغةً في تعلّق علمِه بالتّفاصيل، فعبّر عن داخل الأرض بظلماتٍ، وهو ظُلمةٌ واحدةٌ؛ لأنّه ظُلمةٌ متكاثفةٌ متكاثرةٌ بسبب جهْلِ الإنسان ما يجري في باطنها من أسبابٍ لا يدركُها الإنسانُ إلّا بعد أن تظهرَ[3].

فائدةُ تنكيرِ الرّطْبِ واليابسِ:

نكّرَ الوصفَ؛ لإفادةِ عمومِ الرّطْبِ واليابسِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ﴾ ذكرَ الرّطبَ واليابسَ بصيغة التّنكير، ولم يقُل: (ولا الرّطب ولا اليابس)؛ لأنّه أراد التّعميمَ؛ فكلُّ شيء اتّصف بالرّطوبة أو اليبوسةِ فإنّه يعلمُه تعالى[4].

نُكتةُ تعديدِ المستثنَى منه في قوله تعالى: ﴿وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ﴾:

تَعْدادُ المستثنَى منه للتّأكيدِ على شُمول علمِه سُبحانه

وقد تعدّد المستثنى منه لإفادة التّوكيد؛ لأنّ معنى قولِه: ﴿إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾، وقولِه: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ واحدٌ[5]؛ وحسّنَ هذا التّأكيدَ طولُ الكلام، فَبعُدَ الأوّل بالمعطوفات وصفاتِها، وأُعيد بعبارة أخرى تفنّنًا على سبيل التّوكيد، والمبالغة[6]، ولإزالة وهْم مَن يتوهّمُ أنّ أحدًا يعلمُ الغيبَ غيرَه تعالى[7]؛ وتخصيصُ هذه الأشياء بكونها في كتاب مبين، وهو اللّوحُ المحفوظ؛ لإعلام العباد بأنّ الله سبحانه لا

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/90.
(2) النّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/297.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2524.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/536.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/31.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/536، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/364، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/273.
(7) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/116.

يفوتُه شيءٌ ممّا يصنعونَه؛ لأنّ مَن أثبتَ ما لا ثوابَ فيه ولا عقابَ في كتابٍ؛ فهو إلى إثبات ما فيه ثوابٌ وعقابٌ أسرعُ[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(سقطَ) و(هوىَ) و(وقعَ):

السقوطُ الوقوعُ من علٍ بتؤُدَةٍ، ومن غير عاملٍ خارجيٍّ

(هوي): أصل يدلّ على خُلوٍّ وسقوطٍ؛ أصلهُ الهواءُ بين الأرض والسّماء، سمّي لخُلوّه[2]. ويُقال: أهوَيْتُه، إذا ألقَيْتَه من فوق. الهَويُّ: السّقوطُ السَّريعُ إلى أسفلَ، هَوَت العُقابُ تَهوي هَويًّا، إذا انقضّت على صَيدٍ أو غيرِه[3]، ففيه معنى الإلقاء والسّقوطِ السّريع.

والسّقوط أصلُه: الوقوعُ من عُلوٍّ إلى سُفلٍ[4]، وكذلك (الوقوع) إلّا أنّه أخصُّ؛ لارتباطه بنزول الشّدائد والعذابِ، في حين يرتبط معنى السّقوط بالنّدم[5].

فقولُه جلّ شأنُه: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ آثر لفظَ السّقوط؛ لأنّ سقوط الورقة وقوعٌ من أعلى إلى أسفلَ حتّى تصلَ إلى الأرض، من غير سرعةٍ في السّقوط ولا قذفٍ ولا رميٍ، فهو تعالى "يعلم كمِ انقلبت ظهرًا لبطنٍ إلى أن سقطت على الأرض؟!"[6].

---

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/119.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هوي).

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هوى)، والخليل، العين: (هوى)، والواحديّ، البسيط: 14/484.

(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (سقط).

(5) داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 296.

(6) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/130.